مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ
إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ
الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ
عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ
مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ
جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ
إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي
يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ
كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾
وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ
يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ
مَا ظُلِمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

سُورَةُ النَّمْلِ

ويغضبه، من الكفر والمعاصي، ﴿إني لكم رسول أمين﴾ يترتب على ذلك، أن تتقوا الله وتطيعون، وكانوا ـ مع شركهم ـ يبخسون المكاييل والموازين، فلذلك قال لهم: ﴿أوفوا الكيل﴾ أي: أتموه وأكملوه ﴿ولا تكونوا من المخسرين﴾ الذين ينقصون الناس أموالهم ويسلبونها ببخس المكيال والميزان، ﴿وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾ أي: بالميزان العادل، الذي لا يميل، ﴿واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين﴾ أي: الخليقة الأولين، فكما انفرد بخلقكم، وخلق من قبلكم من غير مشاركٍ له في ذلك، فأفردوه بالعبادة والتوحيد، وكما أنعم عليكم بالإيجاد والإمداد بالنعم، فقابلوه بشكره.

قالوا له، مكذبين له، رادّين لقوله: ﴿إنما أنت من المسحرين﴾ فأنت تهذي وتتكلم كلام المسحور، الذي غايته[1] أن لا يؤاخذ به.

﴿وما أنت إلا بشر مثلنا﴾ فليس فيك فضيلة اختصصت بها علينا، حتى تدعونا إلى اتباعك، وهذا مثل قول من قبلهم ومن بعدهم، ممن عارضوا الرسل بهذه الشبهة، التي لم يزالوا يدلون بها ويصولون، ويتفقون عليها، لاتفاقهم على الكفر، وتشابه قلوبهم.

وقد أجابت عنها الرسل بقولهم: ﴿إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده﴾.

﴿وإن نظنك لمن الكاذبين﴾ وهذا جراءة منهم وظلم وقول زور، قد انطووا على خلافه، فإنه ما من رسول من الرسل، واجه قومه ودعاهم، وجادلهم وجادلوه، إلا وقد أظهر الله على يديه من الآيات، ما به يتيقنون صدقه وأمانته، خصوصاً شعيباً عليه السلام، الذي يسمى خطيب الأنبياء، لحسن مراجعته قومه، ومجادلتهم بالتي هي أحسن، فإن قومه قد تيقنوا صدقه، وأن ما جاء به حق، ولكن إخبارهم عن ظن كذبه كذب منهم.

﴿فأسقط علينا كسفاً من السماء﴾ أي: قطع عذاب تستأصلنا. ﴿إن كنت من الصادقين﴾ كقول إخوانهم ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ أو أنهم طلبوا بعض آيات الاقتراح، التي لا يلزم تتميم مطلوب من سألها.

﴿قال﴾ شعيب عليه السلام: ﴿ربي أعلم بما تعملون﴾ أي: نزول العذاب، ووقوع آيات الاقتراح، لست أنا الذي آتي بها وأنزلها بكم، وليس عليَّ إلا تبليغكم ونصحكم وقد فعلت، وإنما الذي يأتي بها ربيِّ، العالم بأعمالكم وأحوالكم، الذي يجازيكم ويحاسبكم.

﴿فكذبوه﴾ أي: صار التكذيب لهم وصفاً، والكفر لهم ديدناً، بحيث لا تفيدهم الآيات، وليس بهم حيلة إلا نزول العذاب.

﴿فأخذهم عذاب يوم الظلة﴾ أظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها مستلذين، لظلها غير الظليل، فأحرقتهم بالعذاب، فظلوا تحتها خامدين، ولديارهم مفارقين، ولدار الشقاء والعذاب نازلين.

﴿إنه كان عذاب يوم عظيم﴾ لا كرة لهم إلى الدنيا، فيستأنفوا العمل، ولا يُفتَّر عنهم العذاب ساعة، ولا هم ينظرون.

﴿إن في ذلك لآية﴾ دالة على صدق شعيب، وصحة ما دعا إليه، وبطلان رد قومه عليه، ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ مع رؤيتهم الآيات، لأنهم لا زكاء فيهم، ولا خير لديهم ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾.

﴿وإن ربك لهو العزيز﴾ الذي امتنع بقوته عن إدراك أحد، وقهر كل مخلوق. ﴿الرحيم﴾ الذي الرحمة وصفه، ومن آثارها، جميع الخيرات في الدنيا والآخرة، من حين أوجد الله العالم إلى ما نهاية له. ومن عزته، أن أهلك أعداءه حين كذبوا رسله، ومن رحمته، أن نجّى أولياءه ومن اتبعهم من المؤمنين.

﴿١٩٢ ـ ٢٠٣﴾ ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين * وإنه لفي زبر الأولين * أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل * ولو نزلناه على بعض الأعجمين * فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين * كذلك سلكناه في قلوب المجرمين * لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم * فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون * فيقولوا هل نحن منظرون﴾ لما ذكر قصص الأنبياء مع أممهم، وكيف دعوهم، و [ما][2] ردوا عليهم به، وكيف أهلك الله أعداءهم، وصارت لهم العاقبة.

ذكر هذا الرسول الكريم، والنبي المصطفى العظيم، وما جاء به من الكتاب، الذي فيه هداية لأولي الألباب، فقال: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ فالذي أنزله، فاطر الأرض والسماوات، المربيّ جميع العالم، العلوي والسفلي، وكما أنه رباهم بهدايتهم لمصالح دنياهم وأبدانهم، فإنه يربيهم أيضاً، بهدايتهم لمصالح دينهم وأخراهم، ومن أعظم ما رباهم به، إنزال هذا الكتاب الكريم، الذي

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

اشتمل على الخير الكثير، والبر الغزير، وفيه من الهداية لمصالح الدارين، والأخلاق الفاضلة، ما ليس في غيره، وفي قوله: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ من تعظيمه وشدة الاهتمام فيه، من كونه نزل من الله، لا من غيره، مقصوداً فيه نفعكم وهدايتكم، ﴿نزل به الروح الأمين﴾ وهو جبريل عليه السلام، الذي هو أفضل الملائكة وأقواهم، ﴿الأمين﴾ الذي قد أمن أن يزيد فيه أو ينقص.

﴿على قلبك﴾ يا محمد ﴿لتكون من المنذرين﴾ تهدي به إلى طريق الرشاد، وتنذر به عن طريق الغي.

﴿بلسان عربي﴾ وهو أفضل الألسنة، بلغة من بُعثَ إليهم، وباشر دعوتهم أصلاً، اللسان البيِّن الواضح. وتأمل كيف اجتمعت هذه الفضائل الفاخرة في هذا الكتاب الكريم، فإنه أفضل الكتب، نزل به أفضل الملائكة، على أفضل الخلق، على أفضل بضعة فيه وهي قلبه، على أفضل أمة أخرجت للناس، بأفضل الألسنة وأفصحها وأوسعها، وهو اللسان العربي المبين.

﴿وإنه لفي زبر الأولين﴾ أي: قد بشرت به كتب الأولين وصدقته، وهو لما نزل طِبْقَ ما أخبرت به، صدقها، بل جاء بالحق وصدق المرسلين.

﴿أولم يكن لهم آية﴾ على صحته، وأنه من الله ﴿أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾ الذي قد انتهى إليهم العلم، وصاروا أعلم الناس، وهم أهل الصنف، فإن كل شيء يحصل به اشتباه، يرجع فيه إلى أهل الخبرة والدراية، فيكون قولهم حجة على غيرهم، كما عرف السحرة الذين مهروا في علم السحر، صدق معجزة موسى، وأنه ليس بسحر، فقول الجاهلين بعد هذا لا يؤبه به.

﴿ولو نزلناه على بعض الأعجمين﴾ الذين لا يفقهون لسانهم، ولا يقدرون على التعبير لهم كما ينبغي ﴿فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين﴾ يقولون: ما نفقه ما يقول، ولا ندري ما يدعو إليه، فليحمدوا ربهم، أن جاءهم على لسان أفصح الخلق، وأقدرهم على التعبير عن المقاصد، بالعبارات الواضحة وأنصحهم، وليبادروا إلى التصديق به، وتلقيه بالتسليم والقبول، ولكن تكذيبهم له عن غير شبهة، إن هو إلا محض الكفر والعناد، وأمر قد توارثته الأمم المكذبة، فلهذا قال: ﴿كذلك سلكناه في قلوب المجرمين﴾ أي: أدخلنا التكذيب، وأنظمناه في قلوب أهل الإجرام، كما يدخل السلك في الإبرة، فتشربته، وصار وصفاً لها، وذلك بسبب ظلمهم وجرمهم، فلذلك ﴿لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم﴾ على تكذيبهم، ﴿فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ أي: يأتيهم على حين غفلة، وعدم إحساس منهم، ولا استشعار بنزوله، ليكون أبلغ في عقوبتهم والنكال بهم.

﴿فيقولوا﴾ إذ ذاك: ﴿هل نحن منظرون﴾ أي: يطلبون أن يُنظروا ويمهلوا، والحال إنه قد فات الوقت، وحل بهم العذاب الذي لا يرفع عنهم، ولا يفتر ساعة.

﴿٢٠٤ ـ ٢٠٧﴾ ﴿أفبعذابنا يستعجلون * أفرأيت إن متعناهم سنين * ثم جاءهم ما كانوا يوعدون * ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾ يقول تعالى: ﴿أفبعذابنا﴾ الذي هو العذاب الأليم العظيم، الذي لا يستهان به ولا يحتقر، ﴿يستعجلون﴾ فما الذي غرهم؟ هل فيهم قوة وطاقة للصبر عليه؟ أم عندهم قوة يقدرون على دفعه أو رفعه إذا نزل؟ أم يُعجزوننا ويظنون أننا لا نقدر على ذلك؟

﴿أفرأيت إن متعناهم سنين﴾ أي: أفرأيت إذا لم نستعجل عليهم بإنزال العذاب، وأمهلناهم عدة سنين يتمتعون في الدنيا ﴿ثم جاءهم ما كانوا يوعدون﴾ من العذاب.

﴿ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾ من اللذات والشهوات، أي: أي: شيء تغني عنهم وتفيدهم، وقد مضت، وبطلت، واضمحلت، وأعقبت تبعاتها، وضوعف لهم العذاب عند طول المدة. القصد أن الحذر، من وقوع العذاب، واستحقاقهم له. وأما تعجيله أو تأخيره، فلا أهمية تحته، ولا جدوى عنده.

﴿٢٠٨ ـ ٢١٢﴾ ﴿وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون * ذكرى وما كنا ظالمين * وما تنزلت به الشياطين * وما ينبغي لهم وما يستطيعون * إنهم عن السمع لمعزولون﴾ يخبر تعالى عن كمال عدله في إهلاك المكذبين، وأنه ما أوقع بقرية هلاكاً وعذاباً، إلا بعد أن يعذر منهم، ويبعث فيهم النُّذر بالآيات البينات، ويدعونهم إلى الهدى، وينهونهم عن الردى، ويذكرونهم بآيات الله، وينبهونهم على أيامه في نعمه ونقمه.

﴿ذكرى﴾ لهم وإقامة حجة عليهم. ﴿وما كنا ظالمين﴾ فنهلك القرى قبل أن ننذرهم، ونأخذهم وهم غافلون عن النذر، كما قال تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾.

ولما بين تعالى كمال القرآن وجلالته، نزهه عن كل صفة نقص، وحماه ـ وقت نزوله، وبعد نزوله ـ من شياطين الجن والإنس، فقال: ﴿وما تنزلت به الشياطين * وما ينبغي لهم﴾ أي: لا يليق بحالهم ولا يناسبهم ﴿وما يستطيعون﴾ ذلك. ﴿إنهم عن السمع لمعزولون﴾ قد أبعدوا عنه، وأعدت لهم الرجوم لحفظه، ونزل به جبريل أقوى الملائكة، الذي لا يقدر شيطان أن يقربه، أو يحوم حول ساحته، وهذا كقوله: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

﴿٢١٣ ـ ٢١٦﴾ ﴿فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين * وأنذر عشيرتك الأقربين * واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين * فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون﴾ ينهى تعالى رسوله أصلاً، وأمته أسوة له في ذلك، عن دعاء غير الله، من جميع المخلوقين، وأن ذلك موجب للعذاب الدائم، والعقاب السرمدي، لكونه

شركاً، ﴿ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار﴾ والنهي عن الشيء أمرٌ بضده، فالنهي عن الشرك، أمر بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، محبة، وخوفاً، ورجاء، وذلاً، وإنابة إليه في جميع الأوقات. ولما أمره بما فيه كمال نفسه، أمره بتكميل غيره، فقال: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ الذين هم أقرب الناس إليك، وأحقهم بإحسانك الديني والدنيوي، وهذا لا ينافي أمره بإنذار جميع الناس، كما إذا أمر الإنسان بعموم الإحسان، ثم قيل له «أحسن إلى قرابتك»، فيكون هذا خصوصاً[1] دالاً على التأكيد وزيادة الحق، فامتثل ﷺ هذا الأمر الإلهي، فدعى سائر بطون قريش، فعمم وخصص، وذكرهم ووعظهم، ولم يُبْقِ ﷺ من مقدوره شيئاً، من نصحهم وهدايتهم إلا فعله، فاهتدى من اهتدى، وأعرض من أعرض، ﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾ بلين جانبك، ولطف خطابك لهم، وتوددك وتحببك إليهم، وحسن خلقك والإحسان التام بهم، وقد فعل ﷺ ذلك، قال تعالى: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر﴾ فهذه أخلاقه ﷺ، أكمل الأخلاق، التي يحصل بها من المصالح العظيمة ودفع المضار ما هو مشاهد. فهل يليق بمؤمن بالله ورسوله، ويدَّعي اتباعه والاقتداء به، أن يكون كلاً على المسلمين، شرسَ الأخلاق، شديد الشكيمة عليهم، غليظ القلب، فظَّ القول، فظيعه؟ [و] إن رأى منهم معصية أو سوء أدب، هجرهم ومقتهم وأبغضهم، لا لين عنده، ولا أدب لديه، ولا توفيق، قد حصل من هذه المعاملة من المفاسد، وتعطيل المصالح ما حصل، ومع ذلك تجده محتقراً لمن اتصف بصفات الرسول الكريم، قد رماه بالنفاق والمداهنة، وقد كمّل نفسه ورفعها، وأُعجب بعمله، فهل هذا إلا من جهله، وتزيين الشيطان وخدعه له، ولهذا قال الله لرسوله: ﴿فإن عصوك﴾ في أمر من الأمور، فلا تتبرأ منهم، ولا تترك معاملتهم، بخفض الجناح، ولين الجانب، بل تبرأ من عملهم، فعظهم عليه وانصحهم، وابذل قدرتك في ردهم عنه وتوبتهم منه، وهذا لدفع، احتراز وهم من يتوهم، أن قوله: ﴿واخفض جناحك﴾ للمؤمنين، يقتضي الرضاء بجميع ما يصدر منهم، ما داموا مؤمنين، فدفع هذا بهذا، والله أعلم.

﴿٢١٧ ـ ٢٢٠﴾ ﴿وتوكل على العزيز الرحيم * الذي يراك حين تقوم * وتقلبك في الساجدين * إنه هو السميع العليم﴾ أعظم مساعد للعبد على القيام بما أمر به، الاعتماد على ربه، والاستعانة بمولاه على توفيقه للقيام بالمأمور، فلذلك أمر الله تعالى بالتوكل عليه، فقال: ﴿وتوكل على العزيز الرحيم﴾ والتوكل هو اعتماد القلب على الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضار، مع ثقته به، وحسن ظنه بحصول مطلوبه، فإنه عزيز رحيم، بعزته يقدر على إيصال الخير ودفع الشر عن عبده، وبرحمته به يفعل ذلك. ثم نبهه على الاستعانة باستحضار قرب الله، والنزول في منزل الإحسان فقال: ﴿الذي يراك حين تقوم * وتقلبك في الساجدين﴾ أي: يراك في هذه العبادة العظيمة، التي هي الصلاة، وقت قيامك وتقلبك راكعاً وساجداً خصها بالذكر، لفضلها وشرفها، ولأن من استحضر فيها قرب ربه، خشع وذل، وأكملها، وبتكميلها يكمل سائر عمله، ويستعين بها على جميع أموره.

﴿إنه هو السميع﴾ لسائر الأصوات، على اختلافها وتشتتها وتنوعها، ﴿العليم﴾ الذي أحاط بالظواهر والبواطن، والغيب والشهادة. فاستحضار العبد رؤية الله له في جميع أحواله، وسمعه لكل ما ينطق به، وعلمه بما ينطوي عليه قلبه، من الهم والعزم والنيات، مما يعينه على منزلة الإحسان.

﴿٢٢١ ـ ٢٢٧﴾ ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين * تنزل على كل أفاكٍ أثيم * يلقون السمع وأكثرهم كاذبون * والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون * وأنهم يقولون ما لا يفعلون * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ هذا جواب لمن قال من مكذبي الرسول: إن محمداً ينزل عليه شيطان. وقول من قال: إنه شاعر، فقال: ﴿هل أنبئكم﴾ أي: أخبركم الخبر الحقيقي الذي لا شك فيه ولا شبهة، على من تنزل الشياطين، أي: بصفة الأشخاص، الذين تنزل عليهم الشياطين. ﴿تنزل على كل أفاك﴾ أي: كذاب، كثير القول للزور، والإفك بالباطل، ﴿أثيم﴾ في فعله، كثير المعاصي، هذا الذي تنزل عليه الشياطين، وتناسب حاله حالهم؟

﴿يلقون﴾ عليه ﴿السمع﴾ الذي يسترقونه من السماء، ﴿وأكثرهم كاذبون﴾ أي: أكثر ما يلقون إليه كذب[2]، فيصدق واحدة، ويكذب معها مئة، فيختلط الحق بالباطل، ويضمحل الحق بسبب قلته، وعدم علمه. فهذه[3] صفة الأشخاص الذين تنزل عليهم الشياطين، وهذه صفة وحيهم له.

وأما محمد ﷺ، فحاله مباينة لهذه الأحوال أعظم مباينة، لأنه الصادق الأمين، البار الراشد، الذي جمع بين برِّ القلب وصدق اللهجة ونزاهة الأفعال

(١) وفي ب: الخصوص.
(٢) في النسختين: كذباً.
(٣) في النسختين: هذا.

من المحرم.

والوحي الذي ينزل عليه من عند الله، ينزل محروساً محفوظاً، مشتملاً على الصدق العظيم، الذي لا شك فيه ولا ريب، فهل يستوي - يا أهل العقول - هذا وأولئك؟ وهل يشتبهان إلا على مجنون لا يميز ولا يفرق بين الأشياء؟

فلما نزهه عن نزول الشياطين عليه، برأه أيضاً من الشعر فقال: ﴿**والشعراء**﴾ أي: **هل أنبئكم أيضاً عن** حالة الشعراء، ووصفهم الثابت، فإنهم ﴿**يتبعهم الغاوون**﴾ عن طريق الهدى، المقبلون على طريق الغي والردى، فهم في أنفسهم غاوون، وتجد أتباعهم كل غاو ضال فاسد.

﴿**ألم تر**﴾ غوايتهم وشدة ضلالهم ﴿**أنهم في كل واد**﴾ من أودية الشعر، ﴿**يهيمون**﴾ فتارة في مدح، وتارة في قدح، وتارة في صدق، وتارة في كذب، وتارة يتغزلون، وأخرى يسخرون، ومرة يمرحون، وآونة يحزنون، فلا يستقر لهم قرار، ولا يثبتون على حال من الأحوال.

﴿**وأنهم يقولون ما لا يفعلون**﴾ أي: هذا وصف الشعراء، أنهم تخالف أقوالهم أفعالهم، فإذا سمعت الشاعر يتغزل بالغزل الرقيق، قلت: هذا أشد الناس غراماً، وقلبه فارغ من ذاك، وإذا سمعته يمدح أو يذم، قلت: هذا صدق، وهو كذب، وتارة يتمدح بأفعال لم يفعلها، وتروك لم يتركها، وكرم لم يحم حول ساحته، وشجاعة يعلو بها على الفرسان، وتراه أجبن من كل جبان، هذا وصفهم.

فانظر، هل يطابق حالة الرسول محمد ﷺ، الراشد البار، الذي يتبعه كل راشد ومهتد، الذي قد استقام على الهدى، وجانب الردى، ولم تتناقض أفعاله، ولم تخالف أقواله أفعاله؟ الذي لا يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر، ولا أخبر بشيء إلا صدق، ولا أمر بشيء إلا كان أول الفاعلين له، ولا نهى عن شيء إلا كان أول التاركين له.

فهل تناسب حاله حالة الشعراء، أو يقاربهم؟ أم هو مخالف لهم من جميع الوجوه؟ فصلوات الله وسلامه على هذا الرسول الأكمل، والهمام الأفضل، أبد الآبدين، ودهر الداهرين، الذي ليس بشاعر، ولا ساحر، ولا مجنون، ولا يليق به إلا كل كمال.

ولما وصف الشعراء بما وصفهم به، استثنى منهم من آمن بالله ورسوله، وعمل صالحاً، وأكثر من ذكر الله، وانتصر من أعدائه المشركين من بعد ما ظلموهم.

فصار شعرهم من أعمالهم الصالحة وآثار إيمانهم، لاشتماله على مدح أهل الإيمان، والانتصار من أهل الشرك والكفر، والذَّبّ عن دين الله، وتبيين العلوم النافعة، والحث على الأخلاق الفاضلة، فقال:

﴿**إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون**﴾ ينقلبون إلى موقف وحساب، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولا حقاً إلا استوفاه. والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة النمل
وهي مكية

﴿١ - ٦﴾ ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين * هدى وبشرى للمؤمنين * الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون * إنّ الذين لا يؤمنون بالآخرة زيّنا لهم أعمالهم فهم يعمهون * أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون * وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم**﴾ ينبّه تعالى عباده على عظمة القرآن، ويشير إليه إشارة دالة على التعظيم، فقال: ﴿**تلك آيات القرآن وكتاب مبين**﴾ أي: هي أعلى الآيات، وأقوى البينات، وأوضح

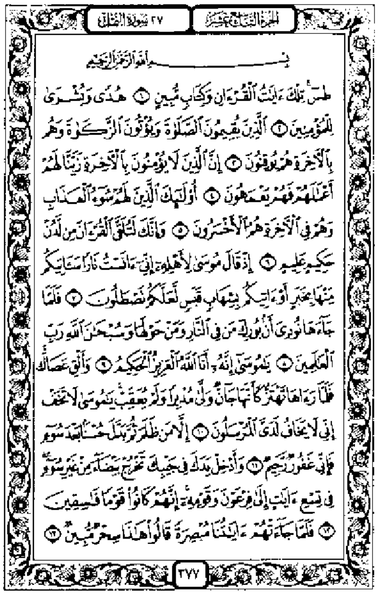

الدلالات، وأبينها على أجل المطالب، وأفضل المقاصد، وخير الأعمال، وأزكى الأخلاق، آيات تدل على الأخبار الصادقة، والأوامر الحسنة، والنهي عن كل عمل وخيم، وخلق ذميم، آيات بلغت في وضوحها وبيانها للبصائر النيرة، مبلغ الشمس للأبصار، آيات دلت على الإيمان، ودعت للوصول إلى الإيقان، وأخبرت عن الغيوب الماضية والمستقبلة، على طِبْقِ ما كان ويكون. آيات دعت إلى معرفة الرب العظيم، بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وأفعاله الكاملة، آيات عرفتنا برسله وأوليائه، ووصفتهم حتى كأننا ننظر إليهم بأبصارنا، ولكن مع هذا لم ينتفع بها كثير من العالمين، ولم يهتد بها جميع المعاندين، صوناً لها عن من لا خير فيه ولا صلاح، ولا زكاء في قلبه، وإنما اهتدى بها، من خصهم الله بالإيمان، واستنارت بذلك قلوبهم، وصفت سرائرهم.

فلهذا قال: ﴿**هدى وبشرى للمؤمنين**﴾ أي: تهديهم إلى سلوك الصراط المستقيم، وتبين لهم ما ينبغي أن يسلكوه أو يتركوه، وتبشرهم بثواب الله المرتب على الهداية لهذا الطريق.

ربما قيل: لعله يكثر مدعو الإيمان، فهل يقبل من كل أحد ادّعى

وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾
وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ
وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ
لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ
﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟
مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا
تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾
وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ
مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ
أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ
فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾

أنه مؤمن ذلك؟ أم لا بد لذلك من دليل؟ وهو الحق، فلذلك بيَّن تعالى صفة المؤمنين، فقال: ﴿الذين يقيمون الصلاة﴾ فرضها ونفلها، فيأتون بأفعالها الظاهرة، من أركانها، وشروطها، وواجباتها، بل ومستحباتها، وأفعالها الباطنة، وهو الخشوع الذي روحها ولبها، باستحضار قرب الله، وتدبر ما يقول المصلي ويفعله.

﴿ويؤتون الزكاة﴾ المفروضة لمستحقيها. ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ أي: قد بلغ معهم الإيمان إلى أن وصل إلى درجة اليقين، وهو العلم التام، الواصل إلى القلب، الداعي إلى العمل. ويقينهم بالآخرة، يقتضي كمال سعيهم لها، وحذرهم من أسباب العذاب وموجبات العقاب، وهذا أصل كل خير.

﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ ويكذبون بها، ويكذبون من جاء بإثباتها، ﴿زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون﴾ حائرين مترددين، مؤثرين سخط الله على رضاه، قد انقلبت عليهم الحقائق، فرأوا الباطل حقاً، والحق باطلاً.

﴿أولئك الذين لهم سوء العذاب﴾ أي: أشده وأسوأه وأعظمه، ﴿وهم في الآخرة هم الأخسرون﴾ حصر الخسار فيهم، لكونهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، وخسروا الإيمان الذي دعتهم إليه الرسل.

﴿وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾ أي: وإن هذا القرآن الذي ينزل عليك وتتلقفه وتتلقنه، ينزل من عند ﴿حكيم﴾ يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها. ﴿عليم﴾ بأسرار الأمور[1] وبواطنها، كظواهرها. وإذا كان من عند ﴿حكيم عليم﴾[2] علم أنه كله حكمة ومصالح للعباد، من الذي [هو] أعلم بمصالحهم منهم؟

﴿إذ قال موسى لأهله إني آنست ناراً﴾ إلى آخر قصته، يعني: اذكر هذه الحالة الفاضلة الشريفة من أحوال موسى بن عمران، ابتداء الوحي إليه، واصطفائه برسالته، وتكليم الله إياه، وذلك أنه لما مكث في مدين عدة سنين، وسار بأهله من مدين متوجهاً إلى مصر، فلما كان في أثناء الطريق ضل، وكان في ليلة مظلمة باردة، فقال لهم: ﴿إني آنست ناراً﴾ أي: أبصرت ناراً من بعيد ﴿سآتيكم منها بخبر﴾ عن الطريق، ﴿أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون﴾ أي: تستدفئون، وهذا دليل على أنه تائه، ومشتد برده، هو وأهله.

﴿فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها﴾ أي: ناداه الله تعالى وأخبره، أن هذا محل مقدس مبارك، ومن بركته، أن جعله الله موضعاً لتكليم الله لموسى ونداءه وإرساله.

﴿وسبحان الله رب العالمين﴾ عن أن يُظن به نقص أو سوء، بل هو الكامل في وصفه وفعله.

﴿يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم﴾ أي: أخبره الله أنه الله المستحق للعبادة وحده لا شريك له، كما في الآية الأخرى ﴿إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾ ﴿العزيز﴾ الذي قهر جميع الأشياء، وأذعنت له كل المخلوقات، ﴿الحكيم﴾ في أمره وخلقه. ومن حكمته، أن أرسل عبده موسى بن عمران، الذي علم الله منه أنه أهل لرسالته ووحيه وتكليمه. ومن عزته، أن تعتمد عليه، ولا تستوحش من انفرادك وكثرة أعدائك وجبروتهم، فإن نواصيهم بيد الله، وحركاتهم وسكونهم بتدبيره.

﴿وألق عصاك﴾ فألقاها ﴿فلما رآها تهتز كأنها جان﴾ وهو ذكرُ الحيات، سريع الحركة، ﴿ولى مدبراً ولم يعقب﴾ ذعراً من الحية التي رأى، على مقتضى الطبائع البشرية، فقال الله له: ﴿يا موسى لا تخف﴾ وقال في الآية الأخرى: ﴿أقبل ولا تخف إنك من الآمنين﴾ ﴿إني لا يخاف لدي المرسلون﴾ لأن جميع المخاوف مندرجة في قضائه وقدره وتصريفه وأمره، فالذين اختصهم الله برسالته، واصطفاهم لوحيه، لا ينبغي لهم أن يخافوا غير الله، خصوصاً عند زيادة القرب منه، والحظوة بتكليمه.

﴿إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء﴾ أي: فهذا الذي هو محل الخوف والوحشة بسبب ما أسدى من الظلم، وما تقدم له من الجرم، وأما المرسلون، فما لهم وللوحشة والخوف؟ ومع هذا، من ظلم نفسه بمعاصي الله، ثم تاب وأناب، فبدل سيئاته حسنات، ومعاصيه طاعات، فإن الله غفور رحيم، فلا ييأس أحد من رحمته ومغفرته، فإنه يغفر الذنوب جميعاً، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها.

﴿وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾ لا برص ولا نقص، بل بياض يبهر الناظرين شعاعه. ﴿في تسع آيات إلى فرعون وقومه﴾ أي: هاتان الآيتان، انقلاب العصا حية تسعى، وإخراج اليد من

---

(١) في ب: الأحوال.

(٢) سبق قلم الشيخ ـ رحمه الله ـ فكتب: (حكيم خبير) فصححتها، وأبقيت التفسير كما هو.

إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

الجيب، فتخرج بيضاء في جملة تسع آيات، تذهب بها وتدعو فرعون وقومه، ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ فسقوا بشركهم وعتوهم وعلوهم على عباد الله، واستكبارهم في الأرض بغير الحق.

فذهب موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه، ودعاهم إلى الله تعالى، وأراهم الآيات. ﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرة﴾ مضيئة، تدل على الحق، ويبصر بها كما تبصر الأبصار بالشمس. ﴿قالوا هذا سحر مبين﴾ لم يكفهم مجرد القول بأنه سحر، بل قالوا: ﴿مبين﴾ ظاهر لكل أحد. وهذا من أعجب العجائب، الآيات المبصرات، والأنوار الساطعات، تجعل من أبين الخزعبلات وأظهر السحر! هل هذا إلا من أعظم المكابرة، وأوقح السفسطة.

﴿وجحدوا بها﴾ أي: كفروا بآيات الله، جاحدين لها، ﴿واستيقنتها أنفسهم﴾ أي: ليس جحدهم مستنداً إلى الشك والريب، وإنما جحدهم مع علمهم ويقينهم[1] بصحتها ﴿ظلماً﴾ منهم لحق ربهم ولأنفسهم، ﴿وعلواً﴾ على الحق وعلى العباد، وعلى الانقياد للرسل، ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ أسوأ عاقبة، دمرهم الله وغرّقهم في البحر، وأخزاهم، وأورث مساكنهم المستضعفين من عباده.

﴿١٥ ـ ٤٤﴾ ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين * وورث سليمان داود﴾ إلى آخر القصة. يذكر في هذا القرآن، وبنوه بمنته على داود وسليمان ابنه، بالعلم الواسع الكثير، بدليل التنكير، كما قال تعالى: ﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين * ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً﴾ الآية.

﴿وقالا﴾ شاكرين لربهما منته الكبرى بتعليمهما: ﴿الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾ فحمدا الله على جعلهما من المؤمنين، أهل السعادة، وأنهم كانوا من خواصهم.

ولا شك أن المؤمنين أربع درجات: الصالحون، ثم فوقهم الشهداء، ثم فوقهم الصديقون، ثم فوقهم الأنبياء، وداود وسليمان، من خواص الرسل، وإن كانوا دون درجة أولي العزم [الخمسة]، لكنهم من جملة الرسل الفضلاء الكرام، الذين نوه الله بذكرهم، ومدحهم في كتابه مدحاً عظيماً، فحمدوا الله على بلوغ هذه المنزلة، وهذا عنوان سعادة العبد، أن يكون شاكراً لله على نعمه الدينية والدنيوية، وأن يرى جميع النعم من ربه، فلا يفخر بها ولا يعجب بها، بل يرى أنها تستحق عليه شكراً كثيراً، فلما مدحهما مشتركين، خص سليمان بما خصه به، لكون الله أعطاه ملكاً عظيماً، وصار له من الماجريات ما لم يكن لأبيه، صلى الله عليهما وسلم، فقال: ﴿وورث سليمان داود﴾ أي: ورث علمه ونبوته، فانضم علم أبيه إلى علمه، فلعله تعلم من أبيه ما عنده من العلم، مع ما كان عليه من العلم وقت أبيه، كما تقدم من قوله ففهمناها سليمان، وقال شكراً لله، وتبجحاً بإحسانه، وتحدثاً بنعمته: ﴿يا أيها الناس علمنا منطق الطير﴾ فكان عليه الصلاة [والسلام] يفقه ما تقول وتتكلم به، كما راجع الهدهد وراجعه، وكما فهم قول النملة للنمل كما يأتي، وهذا لم يكن لأحد غير سليمان عليه الصلاة والسلام.

﴿وأوتينا من كل شيء﴾ أي: أعطانا الله من النعم، ومن أسباب الملك، ومن السلطنة والقهر، ما لم يؤته أحداً من الآدميين، ولهذا دعا ربه فقال: ﴿وهب[2] لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي﴾ فسخر الله له الشياطين، يعملون له كل ما شاء، من الأعمال التي يعجز عنها غيرهم، وسخر له الريح، غدوها شهر ورواحها شهر.

﴿إن هذا﴾ الذي أعطانا الله وفضلنا واختصنا به ﴿لهو الفضل المبين﴾ الواضح الجلي، فاعترف أكمل اعتراف بنعمة الله تعالى.

﴿وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون﴾ أي: جمع له جنوده الكثيرة الهائلة المتنوعة، من بني آدم، ومن الجن والشياطين، ومن الطيور فهم يوزعون، يدبرون، ويرد أولهم على آخرهم، وينظمون غاية التنظيم في سيرهم ونزولهم، وحلهم وترحالهم قد استعد لذلك، وأعد له عدته، وكل هذه الجنود مؤتمرة بأمره، لا تقدر على عصيانه، ولا تتمرد عنه، قال تعالى: ﴿هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك﴾ أي: أعط بغير حساب، فسار بهذه الجنود الضخمة في بعض أسفاره[3].

﴿حتى إذا أتوا على وادي النمل

---

(١) في ب: تيقنهم.

(٢) في النسختين: فقال: (رب هب) وهو خطأ.

(٣) في أ: في بعض في.

فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم
بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ
لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾
قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ
وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠
ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ
هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا
يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟
لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾
فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا
ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ
ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا
رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ
قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

قالت نملة﴾ منبهة لرفقتها وبني جنسها: **﴿يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾** فنصحت هذه النملة، وأسمعت النمل، إما بنفسها، ويكون الله قد أعطى النمل أسماعاً خارقة للعادة، لأن التنبيه للنمل، الذي قد ملأ الوادي بصوت نملة واحدة، من أعجب العجائب. وإما بأنها أخبرت مَن حولها من النمل، ثم سرى الخبر من بعضهن لبعض حتى بلغ الجميع، وأمرتهن بالحذر، والطريق في ذلك، وهو دخول مساكنهن.

وعرفت حالة سليمان وجنوده، وعظمة سلطانه، واعتذرت عنهم، أنهم إن حطموكم، فليس عن قصد منهم ولا شعور، فسمع سليمان عليه الصلاة والسلام قولها وفهمه، **﴿فتبسم ضاحكاً من قولها﴾** إعجاباً منه بفصاحتها[1] ونصحها، وحسن تعبيرها. وهذا حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، الأدب الكامل، والتعجب في موضعه، وأن لا يبلغ بهم الضحكُ إلا إلى التبسم، كما كان الرسول ﷺ جُلُّ ضحكه التبسم، فإن القهقهة تدل على خفة العقل وسوء الأدب. وعدم التبسم والعجب مما يتعجب منه، يدل على شراسة الخلق والجبروت. والرسل منزهون عن ذلك.

وقال شاكراً لله الذي أوصله إلى هذه الحال: **﴿رب أوزعني﴾** أي: ألهمني ووفقني **﴿أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي﴾** فإن النعمة على الوالدين نعمة على الولد. فسأل ربه التوفيق للقيام بشكر نعمته، الدينية والدنيوية، عليه وعلى والديه، **﴿وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾** أي: ووفقني أن أعمل صالحاً ترضاه، لكونه موافقاً لأمرك، مخلصاً فيه، سالماً من المفسدات والمنقصات، **﴿وادخلني برحمتك﴾** التي منها الجنة **﴿في﴾** جملة **﴿عبادك الصالحين﴾** فإن الرحمة مجعولة للصالحين على اختلاف درجاتهم ومنازلهم. فهذا نموذج ذكره الله من حالة سليمان عند سماع خطاب النملة ونداءها.

ثم ذكر نموذجاً آخر من مخاطبته للطير، فقال: **﴿وتفقد الطير﴾** دل هذا على كمال عزمه وحزمه، وحسن تنظيمه لجنوده، وتدبيره بنفسه للأمور الصغار والكبار، حتى إنه لم يهمل هذا الأمر، وهو تفقد الطيور، والنظر: هل هي موجودة كلها، أم مفقود منها شيء؟ وهذا هو المعنى للآية. ولم يصنع شيئاً من قال: إنه تفقد الطير، لينظر أين الهدهد منها[2]، ليدله على بعد الماء وقربه، كما زعموا عن الهدهد، أنه يبصر الماء تحت الأرض الكثيفة، فإن هذا القول لا يدل عليه دليل، بل الدليل العقلي واللفظي دال على بطلانه، أما العقلي، فإنه قد عرف بالعادة والتجارب والمشاهدات، أن هذه الحيوانات كلها، ليس منها شيء يبصر هذا البصر الخارق للعادة، ينظر الماء تحت الأرض الكثيفة، ولو كان كذلك، لذكره الله، لأنه من أكبر الآيات.

وأما الدليل اللفظي، فلو أريد هذا المعنى، لقال: «وطلب الهدهد لينظر له الماء، فلما فقده قال ما قال» أو «فتش عن الهدهد»، أو: «بحث عنه» ونحو ذلك من العبارات، وإنما تفقد الطير، لينظر الحاضر منها والغائب، ولزومها للمراكز والمواضع التي عينها لها. وأيضاً فإن سليمان عليه السلام، لا يحتاج ولا يضطر إلى الماء، بحيث يحتاج لهندسة الهدهد، فإن عنده من الشياطين والعفاريت، ما يحفرون له الماء، ولو بلغ في العمق ما بلغ. وسخر الله له الريح غدوها شهر ورواحها شهر، فكيف ـ مع ذلك ـ يحتاج إلى الهدهد؟!!

وهذه التفاسير التي توجد، وتشتهر بها أقوال، لا يعرف غيرها، تنقل هذه الأقوال عن بني إسرائيل مجردة، ويغفل الناقل عن مناقضتها للمعاني الصحيحة، وتطبيقها على الأقوال، ثم لا تزال تتناقل، وينقلها المتأخر مسلماً للمتقدم، حتى يظن أنها الحق، فيقع من الأقوال الردية في التفاسير ما يقع، واللبيب الفطن، يعرف أن هذا القرآن الكريم، العربي المبين، الذي خاطب الله به الخلق كلهم، عالمهم وجاهلهم، وأمرهم بالتفكر في معانيه، وتطبيقها على ألفاظه العربية المعروفة المعاني، التي لا تجهلها العرب العرباء، وإذا وجد أقوالاً منقولة عن غير رسول الله ﷺ، ردها إلى هذا الأصل، فإن وافقته قبلها، لكون اللفظ دالاً عليها، وإن خالفته لفظاً ومعنى، أو لفظاً أو معنى، ردها وجزم ببطلانها، لأن عنده أصلاً معلوماً مناقضاً لها، وهو ما يعرفه من معنى الكلام ودلالته.

والشاهد، أن تفقد سليمان عليه السلام للطير، وفقده الهدهد، يدل على كمال حزمه وتدبيره الملك بنفسه، وكمال فطنته، حتى فقد هذا الطائر الصغير **﴿فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين﴾** أي: هل عدم رؤيتي إياه، لقلة فطنتي به، لكونه خفياً بين هذه الأمم الكثيرة؟ أم على بابها، بأن كان غائباً من غير إذني ولا أمري؟.

فحينئذ تغيظ عليه وتوعده، فقال:

---

(١) في ب: بنصح أمتها.

(٢) في ب: منه.

﴿لأعذبنه عذاباً شديداً﴾ دون القتل، ﴿أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين﴾ أي: حجة واضحة على تخلفه، وهذا من كمال ورعه وإنصافه، أنه لم يقسم على مجرد عقوبته بالعذاب أو القتل، لأن ذلك لا يكون إلا من ذنب، وغيبته قد تحتمل أنها لعذر واضح، فلذلك استثناه، لورعه وفطنته.

﴿فمكث غير بعيد﴾ ثم جاء، وهذا يدل على هيبة[(١)] جنوده منه، وشدة ائتمارهم لأمره، حتى إن هذا الهدهد، الذي خلفه العذر الواضح، لم يقدر على التخلف زمناً كثيراً، ﴿فقال﴾ لسليمان: ﴿أحطت بما لم تحط به﴾ أي: عندي من العلم علم ما أحطت به، على علمك الواسع، وعلو درجتك فيه، ﴿وجئتك من سبأ﴾ القبيلة المعروفة في اليمن ﴿بنبأ يقين﴾ أي: خبر متيقن.

ثم فسر هذا النبأ فقال: ﴿إني وجدت امرأة تملكهم﴾ أي: تملك قبيلة سبأ، وهي امرأة، ﴿وأوتيت من كل شيء﴾ يؤتاه الملوك، من الأموال، والسلاح، والجنود، والحصون، والقلاع، ونحو ذلك. ﴿ولها عرش عظيم﴾ أي: كرسي ملكها الذي تجلس عليه، عرش هائل، وعظم العروش تدل على عظمة المملكة وقوة السلطان وكثرة رجال الشورى.

﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله﴾ أي: هم مشركون يعبدون الشمس. ﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم﴾ فرأوا ما هم عليه هو الحق، ﴿فهم لا يهتدون﴾ لأن الذي يرى أن الذي عليه حق، لا مطمع في هدايته حتى تتغير عقيدته.

ثم قال: ﴿ألا﴾ أي: هلا ﴿يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض﴾ أي: يعلم الخفي الخبيء، في أقطار السماوات، وأنحاء الأرض، من صغار المخلوقات، وبذور النباتات، وخفايا الصدور، ويخرج خبء الأرض والسماء، بإنزال المطر، وإنبات النبات، ويخرج خبء الأرض عند النفخ في الصور وإخراج الأموات من الأرض، ليجازيهم بأعمالهم ﴿ويعلم ما تخفون وما تعلنون﴾.

﴿الله لا إله إلا هو﴾ أي: لا تنبغي العبادة، والإنابة، والذل، والحب، إلا له، لأنه المألوه، لما له من الصفات الكاملة، والنعم الموجبة لذلك. ﴿رب العرش العظيم﴾ الذي هو سقف المخلوقات، ووسع الأرض والسماوات، فهذا الملك عظيم السلطان، كبير الشأن، هو الذي يذل له ويخضع، ويسجد له ويركع، فسلم الهدهد حين ألقى إليه هذا النبأ العظيم، وتعجب سليمان كيف خفي عليه.

وقال متثبتاً لكمال عقله ورزانته: ﴿سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين * اذهب بكتابي هذا﴾ وسيأتي نصه ﴿فألقه إليهم ثم تول عنهم﴾ أي: استأخر غير بعيد ﴿فانظر ماذا يرجعون﴾ إليك وما يتراجعون به.

فذهب به فألقاه عليها، فقالت لقومها: ﴿إني ألقي إلي كتاب كريم﴾ أي: جليل المقدار، من أكبر ملوك الأرض.

ثم بينت مضمونه فقالت: ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم * ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين﴾ أي: لا تكونوا فوقي، بل اخضعوا تحت سلطاني، وانقادوا لأوامري، وأقبلوا إلي مسلمين.

وهذا في غاية الوجازة مع البيان التام، فإنه تضمن نهيهم عن العلو عليه، والبقاء على حالهم التي هم عليها، والانقياد لأمره، والدخول تحت طاعته، ومجيئهم إليه، ودعوتهم إلى الإسلام، وفيه استحباب ابتداء الكتب بالبسملة كاملة، وتقديم الاسم في أول عنوان الكتاب، فمن حزمها وعقلها، أن جمعت كبار دولتها ورجال مملكتها، وقالت: ﴿يا أيها الملأ أفتوني

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا
هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ
بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ
عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ
تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾
قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ
مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟
مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ۗ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ
أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ
ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾

في أمري﴾ أي: أخبروني، ماذا نجيبه به؟ وهل ندخل تحت طاعته وننقاد؟ أم ماذا نفعل؟ ﴿ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون﴾ أي: ما كنت مستبدة بأمر دون رأيكم ومشورتكم.

فـ ﴿قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد﴾ أي: إن رددت عليه قوله، ولم تدخلي في طاعته، فإنا أقوياء على القتال، فكأنهم مالوا إلى هذا الرأي، الذي لو تم لكان فيه دمارهم، ولكنهم أيضاً لم يستقروا عليه، بل قالوا: ﴿الأمر إليك﴾ أي: الرأي: ما رأيت، لعلمهم بعقلها وحزمها، ونصحها لهم ﴿فانظري﴾ نظر فكر وتدبر ﴿ماذا تأمرين﴾.

فقالت لهم - مقنعة لهم عن رأيهم، ومبينة سوء مغبة القتال - ﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها﴾ قتلاً، وأسراً، ونهباً لأموالها، وتخريباً لديارها، ﴿وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾ أي: جعلوا الرؤساء السادة أشراف الناس من الأذلين، أي: فهذا رأي: غير سديد، وأيضاً، فلست بمطيعة له قبل الاختبار وإرسال من يكشف عن أحواله ويتدبرها، وحينئذ نكون على بصيرة من أمرنا، فقالت: ﴿وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون﴾ منه. هل يستمر على رأيه

(١) كذا في ب، وفي أ: هيبته.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ
مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنجَيْنَٰهُ
وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا
عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ (٥٨) قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ
وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ
(٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن
تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠)
أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا
رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا
دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ
أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ
فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ
رَحْمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣)﴾

وقوله؟ أم تخدعه الهدية، وتبدل فكرته، وكيف أحواله وجنوده؟

فأرسلت له هدية مع رسل من عقلاء قومها، وذوي الرأي: منهم، ﴿فلما جاء سليمان﴾ أي: جاءه الرسل بالهدية ﴿قال﴾ منكراً عليهم ومتغيظاً على عدم إجابتهم: ﴿أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم﴾ فليست تقع عندي موقعاً، ولا أفرح بها، قد أغناني الله عنها، وأكثر علي النعم، ﴿بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾ لحبكم للدنيا، وقلة ما بأيديكم بالنسبة لما أعطاني الله.

ثم أوصى الرسول من غير كتاب، لما رأى من عقله، وأنه سينقل كلامه على وجهه، فقال: ﴿ارجع إليهم﴾ أي: بهديتك ﴿فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم﴾ أي: لا طاقة لهم ﴿بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون﴾ فرجع إليهم، وأبلغهم ما قال سليمان، وتجهزوا للمسير إلى سليمان، وعلم سليمان أنهم لا بد أن يسيروا إليه، فقال لمن حضره من الجن والإنس: ﴿أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين﴾ أي: لأجل أن نتصرف فيه قبل أن يسلموا، فتكون أموالهم محترمة، ﴿قال عفريت من الجن﴾ والعفريت: هو القوي النشيط جداً: ﴿أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين﴾ والظاهر أن سليمان إذ ذاك في الشام، فيكون بينه وبين سبأ نحو مسيرة أربعة أشهر، شهران ذهاباً، وشهران إياباً، ومع ذلك، يقول هذا العفريت: أنا ألتزم بالمجيء به، على كِبَره وثقله وبُعْده، قبل أن تقوم من مجلسك الذي أنت فيه. والمعتاد من المجالس الطويلة، أن تكون معظم الضحى، نحو ثلث يوم، هذا نهاية المعتاد، وقد يكون دون ذلك، أو أكثر، وهذا الملك العظيم، الذي عند آحاد رعيته هذه القوة والقدرة، وأبلغ من ذلك أن ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب﴾: قال المفسرون: هو رجل عالم صالح، عند سليمان يقال له: «آصف بن برخيا» كان يعرف اسم الله الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى.

﴿أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ بأن يدعو الله بذلك الاسم، فيحضر حالاً، وأنه دعا الله فحضر. فالله أعلم [هل هذا المراد أم أن عنده علماً من الكتاب يقتدر به على جلب البعيد وتحصيل الشديد][(١)].

﴿فلما رآه﴾ سليمان ﴿مستقراً عنده﴾ حمد الله تعالى على إقداره وملكه، وتيسير الأمور له، و ﴿قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر﴾ أي: ليختبرني بذلك. فلم يغتر عليه السلام بملكه وسلطانه وقدرته، كما هو دأب الملوك الجاهلين، بل علم أن ذلك اختبار من ربه، فخاف أن لا يقوم بشكر هذه النعمة، ثم بيَّن أن الشكر لا ينتفع الله به، وإنما يرجع نفعه إلى صاحبه، فقال: ﴿ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم﴾ غني عن أعماله، كريم، كثير الخير، يعم به الشاكر والكافر، إلا أن شكر نعمه داع للمزيد منها، وكفرها داع لزوالها، ثم قال لمن عنده: ﴿نكروا لها عرشها﴾ أي: غيروه بزيادة ونقص، ونحو ذلك ﴿ننظر﴾ مختبرين لعقلها ﴿أتهتدي﴾ للصواب، ويكون عندها ذكاء وفطنة تليق بملكها ﴿أم تكون من الذين لا يهتدون﴾.

﴿فلما جاءت﴾ قادمة على سليمان، عرض عليها عرشها، وكان عهدها به، قد خلفته في بلدها، و ﴿قيل لها أهكذا عرشك﴾ أي: أنه استقر عندنا أن لك عرشاً عظيماً، فهل هو كهذا العرش الذي أحضرناه لك؟ ﴿قالت كأنه هو﴾ وهذا من ذكائها وفطنتها، لم تقل «هو» لوجود التغيير فيه والتنكير، ولم تنف أنه هو، لأنها عرفته، فأتت بلفظ محتمل للأمرين، صادق على الحالين، فقال سليمان متعجباً من هدايتها وعقلها، وشاكراً لله أن أعطاه أعظم منها: ﴿وأوتينا العلم من قبلها﴾ أي: الهداية، والعقل، والحزم، من قبل هذه الملكة، ﴿وكنا مسلمين﴾ وهي الهداية النافعة الأصلية.

ويحتمل أن هذا من قول ملكة سبأ: «وأوتينا العلم عن ملك سليمان وسلطانه، وزيادة اقتداره، من قبل هذه الحالة التي رأينا فيها قدرته على إحضار العرش من المسافة البعيدة، فأذعنا له، وجئنا مسلمين له، خاضعين لسلطانه».

قال الله تعالى: ﴿وصدها ما كانت تعبد من دون الله﴾ أي: عن الإسلام، وإلا، فلها من الذكاء والفطنة ما به تعرف الحق من الباطل، ولكن العقائد الباطلة تذهب بصيرة القلب ﴿إنها كانت من قوم كافرين﴾ فاستمرت على دينهم، وانفراد الواحد عن أهل الدين، والعادة المستمرة بأمر يراه بعقله من ضلالهم وخطئهم، من أندر ما يكون، فلهذا لا يستغرب بقاؤها على الكفر، ثم إن سليمان أراد أن ترى من سلطانه ما يبهر العقول، فأمرها أن تدخل الصرح، وهي المجلس المرتفع المتسع، وكان مجلساً من قوارير، تجري تحته الأنهار.

فـ ﴿قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة﴾ ماء، لأن القوارير شفافة،

---

(١) زيادة من هامش: ب.

أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ
أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾
قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ
وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ادَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ
بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ
كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ
وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ
﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ
﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ
أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ
غَآئِبَةٍ فِي السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْءَانَ
يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾

يرى الماء الذي تحتها، كأنه بذاته يجري، ليس دونه شيء، **﴿وكشفت عن ساقيها﴾** للخياضة، وهذا أيضاً من عقلها وأدبها، فإنها لم تمتنع من الدخول للمحل الذي أمرت بدخوله، لعلمها أنها لم تستدع إلا للإكرام، وأن ملك سليمان وتنظيمه، قد بناه على الحكمة، ولم يكن في قلبها أدنى شك من حالة السوء، بعد ما رأت ما رأت.

فلما استعدت للخوض قيل لها: **﴿إنه صرح ممرد﴾** أي: مملس **﴿من قوارير﴾** فلا حاجة منك لكشف الساقين. فحينئذ لما وصلت إلى سليمان، وشاهدت ما شاهدت، وعلمت نبوته ورسالته، تابت ورجعت عن كفرها، و **﴿قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾**

فهذا ما قصه الله علينا من قصة ملكة سبأ، وما جرى لها مع سليمان، وما عدا ذلك من الفروع المولدة، والقصص الإسرائيلية، فإنه لا يتعلق بالتفسير لكلام الله، وهو من الأمور التي يقف الجزم بها، على الدليل المعلوم المعصوم، والمنقولات في هذا الباب كلها، أو أكثرها، ليس كذلك، فالحزم كل الحزم، الإعراض عنها، وعدم إدخالها في التفاسير، والله أعلم.

﴿٤٥ ـ ٥٣﴾ ﴿ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون﴾ إلى آخر القصة. يخبر تعالى أنه أرسل إلى ثمود القبيلة المعروفة، أخاهم في النسب صالحاً، وأنه أمرهم أن يعبدوا الله وحده، ويتركوا الأنداد والأوثان، **﴿فإذا هم فريقان يختصمون﴾** منهم المؤمن، ومنهم الكافر، وهم معظمهم.

﴿قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة﴾ أي: لم تبادرون فعل السيئات وتحرصون عليها، قبل فعل الحسنات، التي بها تحسن أحوالكم وتصلح أموركم الدينية والدنيوية؟ والحال أنه لا موجب لكم إلى الذهاب لفعل السيئات؟. **﴿لولا تستغفرون الله﴾** بأن تتوبوا من شرككم وعصيانكم، وتدعوه أن يغفر لكم، **﴿لعلكم ترحمون﴾** فإن رحمة الله تعالى قريب من المحسنين، والتائب من الذنوب، هو من المحسنين.

﴿قالوا﴾ لنبيهم صالح، مكذبين ومعارضين: **﴿اطيرنا بك وبمن معك﴾** زعموا ـ قبحهم الله ـ أنهم لم يروا على وجه صالح خيراً، وأنه هو ومن معه من المؤمنين، صاروا سبباً لمنع بعض مطالبهم الدنيوية، فقال لهم صالح: **﴿طائركم عند الله﴾** أي: ما أصابكم إلا بذنوبكم، **﴿بل أنتم قوم تفتنون﴾** بالسراء والضراء، والخير والشر، لينظر هل تقلعون وتتوبون، أم لا؟ فهذا دأبهم في تكذيب نبيهم وما قابلوه به.

﴿وكان في المدينة﴾ التي فيها صالح، الجامعة لمعظم قومه **﴿تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾** أي: وصفهم الإفساد في الأرض، ولا لهم قصد ولا فعل بالإصلاح، قد استعدوا لمعاداة صالح والطعن في دينه، ودعوة قومهم إلى ذلك، كما قال تعالى: **﴿فاتقوا الله وأطيعون * ولا تطيعوا أمر المسرفين * الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾**.

فلم يزالوا بهذه الحال الشنيعة، حتى إنهم من عداوتهم **﴿تقاسموا﴾** فيما بينهم، كل واحد أقسم للآخر: **﴿لنبيتنه وأهله﴾** أي: نأتيه[1] ليلاً، هو وأهله، فلنقتلنهم، **﴿ثم لنقولن لوليه﴾** إذا قام علينا، وادَّعى علينا أنا قتلناه، ننكر ذلك، وننفيه ونحلف **﴿إنا لصادقون﴾** فتواطؤوا على ذلك، **﴿ومكروا مكراً﴾** دبروا أمرهم على قتل صالح وأهله، على وجه الخفية، حتى [من] قومهم، خوفاً من أوليائه، **﴿ومكرنا مكراً﴾** بنصر نبينا صالح عليه السلام، وتيسير أمره، وإهلاك قومه المكذبين **﴿وهم لا يشعرون﴾**

﴿فانظر كيف كان عاقبة مكرهم﴾ هل حصل مقصودهم؟ وأدركوا بذلك المكر مطلوبهم، أم انتقض عليهم الأمر، ولهذا قال: **﴿أنا دمرناهم وقومهم أجمعين﴾** أهلكناهم، واستأصلنا شأفتهم، فجاءتهم صيحة عذاب، فأهلكوا عن آخرهم.

﴿فتلك بيوتهم خاوية﴾ قد تهدمت جدرانها على سقوفها، وأوحشت من ساكنيها، وعطلت من نازليها، **﴿بما ظلموا﴾** أي: هذا عاقبة ظلمهم وشركهم بالله، وبغيهم في الأرض. **﴿إن في ذلك لآية لقوم يعلمون﴾** الحقائق، ويتدبرون وقائع الله، في أوليائه وأعدائه، فيعتبرون بذلك، ويعلمون أن عاقبة الظلم الدمار والهلاك، وأن عاقبة الإيمان والعدل النجاة والفوز.

ولهذا قال: **﴿وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾** أي: أنجينا المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وكانوا يتقون الشرك بالله والمعاصي، ويعملون بطاعته وطاعة رسله.

﴿٥٤ ـ ٥٨﴾ ﴿ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون﴾ إلى آخر القصة. أي: واذكر عبدنا ورسولنا لوطاً، ونبأه الفاضل، حين قال

---

(١) في ب: لنأتيهم.

وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾

لقومه ـ داعياً لهم إلى الله وناصحاً ـ: **﴿أتأتون الفاحشة﴾** أي: الفعلة الشنعاء، التي تستفحشها العقول والفطر، وتستقبحها الشرائع **﴿وأنتم تبصرون﴾** ذلك، وتعلمون قبحه، فعاندتم، وارتكبتم ذلك، ظلماً منكم وجرأة على الله.

ثم فسر تلك الفاحشة، فقال: **﴿أإنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء﴾** أي: كيف توصلتم إلى هذه الحال، صارت شهوتكم للرجال، وأدبارهم محل الغائط والنَّجْو والخبث، وتركتم ما خلق الله لكم من النساء، من المحال الطيبة، التي جبلت النفوس إلى الميل إليها وأنتم انقلب عليكم الأمر، فاستحسنتم القبيح، واستقبحتم الحسن، **﴿بل أنتم قوم تجهلون﴾**[1] متجاوزون لحدود الله، متجرؤون على محارمه.

﴿فما كان جواب قومه﴾ قبول ولا انزجار، ولا تذكر وادكار، إنما كان جوابهم المعارضة والمناقضة، والتوعد لنبيهم الناصح ورسولهم الأمين، بالإجلاء عن وطنه، والتشريد عن بلده. فما كان جواب قومه **﴿إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم﴾** فكأنه قيل: ما نقمتم منهم، وما ذنبهم الذي أوجب لهم الإخراج، فقالوا: **﴿إنهم أناس يتطهرون﴾** أي: يتنزهون عن اللواط وأدبار الذكور. فقبحهم الله، جعلوا أفضل الحسنات بمنزلة أقبح السيئات، ولم يكتفوا بمعصيتهم لنبيهم فيما وعظهم به، حتى وصلوا إلى إخراجه، والبلاء موكل بالمنطق، فهم قالوا: **﴿أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون﴾**.

ومفهوم هذا الكلام: «وأنتم متلوثون بالخبث والقذر، المقتضي لنزول العقوبة بقريتكم، ونجاة من خرج منها».

ولهذا قال تعالى: **﴿فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين﴾** وذلك لما جاءته الملائكة في صورة أضياف، وسمع بهم قومه، فجاؤوا إليه يريدونهم بالشر، وأغلق الباب دونهم، واشتد الأمر عليه، ثم أخبرته الملائكة عن جلية الحال، وأنهم جاؤوا لاستنقاذه وإخراجه من بين أظهرهم، وأنهم يريدون إهلاكهم، وأن موعدهم الصبح، وأمروه أن يسري بأهله ليلاً، إلا امرأته فإنه سيصيبها ما أصابهم، فخرج بأهله ليلاً، فنجوا، وصبَّحهم العذاب، فقلب الله عليهم ديارهم، وجعل أعلاها أسفلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك.

ولهذا قال هنا: **﴿وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين﴾** أي: بئس المطر مطرهم، وبئس العذاب عذابهم، لأنهم أنذروا وخوفوا، فلم ينزجروا ولم يرتدعوا، فأحل الله بهم عقابه الشديد.

﴿٥٩﴾ ﴿قل الحمد لله وسلامٌ على عباده الذين اصطفى آلله خيرٌ أم ما يشركون﴾ أي: قل «الحمد لله» الذي يستحق كمال الحمد والمدح والثناء، لكمال أوصافه، وجميل معروفه، وهباته وعدله، وحكمته في عقوبته المكذبين وتعذيب الظالمين، وسلم أيضاً على عباده، الذين تخيرهم واصطفاهم على العالمين، من الأنبياء والمرسلين، وصفوة الله من العالمين، وذلك لرفع ذكرهم، وتنويهاً بقدرهم، وسلامتهم من الشر والأدناس، وسلامة ما قالوه في ربهم من النقائص والعيوب.

﴿آلله خير أما يشركون﴾ وهذا استفهام قد تقرر وعرف، أي: آلله الرب العظيم، كامل الأوصاف، عظيم الألطاف، خير أم الأصنام والأوثان التي عبدوها معه، وهي ناقصة من كل وجه، لا تنفع ولا تضر، ولا تملك لأنفسها ولا لعابديها مثقال ذرة من الخير، فالله خير مما يشركون.

ثم ذكر تفاصيل ما به يعرف ويتعين أنه الإله المعبود، وأن عبادته هي الحق، وعبادة [ما] سواه هي الباطل، فقال:

﴿٦٠﴾ ﴿أمَّن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون﴾.

أي: من خلق السماوات وما فيها، من الشمس والقمر والنجوم والملائكة، والأرض وما فيها، من جبال وبحار وأنهار وأشجار وغير ذلك؟

﴿وأنزل لكم﴾ أي: لأجلكم **﴿من السماء ماء فأنبتنا به حدائق﴾** أي: بساتين **﴿ذات بهجة﴾** أي: حسن منظر، من كثرة أشجارها وتنوعها، وحسن ثمارها، **﴿ما كان لكم أن تنبتوا شجرها﴾** لولا مِنَّة الله عليكم بإنزال المطر. **﴿أإله مع الله﴾** فعل هذه الأفعال، حتى يعبد معه ويشرك به؟.

﴿بل هم قوم يعدلون﴾ به غيره، ويسوون به سواه، مع علمهم أنه وحده خالق العالم العلوي والسفلي، ومنزل الرزق.

﴿٦١﴾ ﴿أمَّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي

---

(١) سبق قلم الشيخ ـ رحمه الله ـ فذهب إلى آية الأعراف فكتب: ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ وفسرها على هذا، فصححت الآية، وأبقيتُ التفسير كما هو.

وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ أي: هل الأصنام والأوثان، الناقصة من كل وجه، التي لا فعل منها ولا رزق ولا نفع، خير؟ أم الله الذي ﴿جعل الأرض قراراً﴾ يستقر عليها العباد ويتمكنون من السكنى، والحرث، والبناء، والذهاب، والإياب. ﴿وجعل خلالها أنهاراً﴾ أي: جعل في خلال الأرض، أنهاراً ينتفع بها العباد، في زروعهم وأشجارهم، وشربهم وشرب مواشيهم.

﴿وجعل لها رواسي﴾ أي: جبالاً ترسيها وتثبتها، لئلا تميد، وتكون أوتاداً لها، لئلا تضطرب. ﴿وجعل بين البحرين﴾ البحر المالح والبحر العذب ﴿حاجزاً﴾ يمنع من اختلاطهما، فتفوت المنفعة المقصودة من كل منهما، بل جعل بينهما حاجزاً من الأرض، جعل مجرى الأنهار في الأرض مبعدة عن البحار، فيحصل منها مقاصدها ومصالحها، ﴿أإله مع الله﴾ فعل ذلك، حتى يعدل به الله ويشرك به معه. ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ فيشركون بالله، تقليداً لرؤسائهم، وإلا فلو علموا حق العلم، لم يشركوا به شيئاً.

﴿٦٢﴾ ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلاً ما تذكرون﴾ أي: هل يجيب المضطر، الذي أقلقته الكروب، وتعسر عليه المطلوب، واضطر للخلاص مما هو فيه، إلا الله وحده؟. ومن يكشف السوء، أي: البلاء والشر والنقمة، إلا الله وحده؟ ومن يجعلكم خلفاء الأرض، يمكنكم منها، ويمد لكم بالرزق، ويوصل إليكم نعمه، وتكونون خلفاء من قبلكم، كما أنه سيميتكم، ويأتي بقوم بعدكم، أإله مع الله يفعل هذه الأفعال؟ لا أحد يفعل مع الله شيئاً من ذلك، حتى بإقراركم أيها المشركون، ولهذا كانوا إذا مسهم الضر، دعوا الله مخلصين له الدين، لعلمهم أنه وحده المقتدر على دفعه وإزالته، ﴿قليلاً ما تذكرون﴾ أي: قليل تذكركم وتدبركم للأمور، التي إذا تذكرتموها ادكرتم ورجعتم إلى الهدى، ولكن الغفلة والإعراض شامل لكم، فلذلك ما أرعويتم ولا اهتديتم.

﴿٦٣﴾ ﴿أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته أإله مع الله تعالى الله عمّا يشركون﴾ أي: من هو الذي يهديكم حين تكونون في ظلمات البر والبحر، حيث لا دليل، ولا معلم يرى، ولا وسيلة إلى النجاة إلا هدايته لكم، وتيسيره الطريق، وجعل ما جعل لكم من الأسباب التي تهتدون بها، ﴿ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾ أي: بين يدي المطر، فيرسلها، فتثير السحاب، ثم تؤلفه، ثم تجمعه، ثم تلقحه، ثم تدره، فيستبشر بذلك العباد، قبل نزول المطر. ﴿أإله مع الله﴾ فعل ذلك؟ أم هو وحده، الذي انفرد به؟ فلم أشركتم معه غيره، وعبدتم سواه؟ ﴿تعالى الله عما يشركون﴾ تعاظم وتنزه وتقدس عن شركهم وتسويتهم به غيره.

﴿٦٤﴾ ﴿أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ أي: من هو الذي يبدأ الخلق، وينشئ المخلوقات، ويبتدئ خلقها، ثم يعيد الخلق يوم البعث والنشور؟ ومن يرزقكم من السماء والأرض، بالمطر والنبات؟ ﴿أإله مع الله﴾ يفعل ذلك، ويقدر عليه؟ ﴿قل هاتوا برهانكم﴾ أي: حجتكم ودليلكم على ما قلتم ﴿إن كنتم صادقين﴾ وإلا، فبتقدير أنكم تقولون: إن الأصنام لها مشاركة له، في شيء من ذلك، فذلك مجرد دعوى، صدقوها بالبرهان، وإلا، فاعرفوا أنكم مبطلون، لا حجة لكم، فارجعوا إلى الأدلة اليقينية والبراهين القطعية الدالة على أن الله هو المتفرد بجميع التصرفات، وأنه المستحق أن تصرف له جميع أنواع العبادات.

﴿٦٥ ـ ٦٨﴾ ﴿قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلاّ الله وما يشعرون أيان يبعثون * بل ادّارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون * وقال الذين كفروا أإذا كنا تراباً وآباؤنا أئنا لمخرجون * لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلاّ أساطير الأولين﴾ يخبر تعالى أنه المنفرد بعلم غيب السماوات والأرض، كقوله تعالى: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ وكقوله: ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام﴾ إلى آخر السورة.

فهذه الغيوب ونحوها، اختص الله بعلمها، فلم يعلمها ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وإذا كان هو المنفرد بعلم ذلك، المحيط علمه بالسرائر والبواطن والخفايا، فهو الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ثم أخبر تعالى عن ضعف علم المكذبين بالآخرة، منتقلاً من شيء إلى ما هو أبلغ منه، فقال:

﴿وما يشعرون﴾ أي: وما يدرون ﴿أيان يبعثون﴾ أي: متى البعث والنشور، والقيام من القبور، أي: فلذلك لم يستعدوا، ﴿بل ادّارك علمهم في الآخرة﴾ أي: بل ضعف، وقلّ ولم يكن يقيناً، ولا علماً واصلاً إلى القلب، وهذا أقل وأدنى درجة للعلم، ضعفه ووهاؤه، بل ليس عندهم علم، ولا ضعيف، وإنما ﴿هم في شك منها﴾ أي: من الآخرة، والشك زال به العلم، لأن العلم بجميع مراتبه، لا يجامع الشك، ﴿بل هم منها﴾ أي: من الآخرة ﴿عمون﴾ قد عميت عنها بصائرهم، ولم يكن في قلوبهم من وقوعها ولا احتمال، بل أنكروها واستبعدوها، ولهذا قال: ﴿وقال الذين كفروا أإذا كنا تراباً وآباؤنا أإنا لمخرجون﴾ أي: هذا بعيد غير ممكن، قاسوا قدرة كامل القدرة بقدرهم الضعيفة، ﴿لقد وعدنا هذا﴾ أي: البعث ﴿نحن وآباؤنا من قبل﴾ أي:

فلم يجيئنا، ولا رأينا منه شيئاً. ﴿إن هـذا إلا أسـاطـيـر الأولين﴾ أي: قصصهم وأخبارهم، التي تقطع بها الأوقـات، وليس لـهـا أصـل، ولا صدق فيها.

فانتقل في الإخبار عن أحوال هؤلاء المكذبين بالإخبار أنهم لا يدرون متى وقت الآخرة، ثم الإخبار بضعف علمهم فيها، ثم الإخبار بأنه شك، ثم الإخبار بأنه عمى، ثم الإخبار بإنكارهم لذلك واستبعادهم وقوعه. أي: وبسبب هذه الأحوال ترحّل خوف الآخرة من قلوبهم، فأقدموا على معاصي الله، وسهل عليهم تكذيب الحق، والتصديق بالباطل، واستحلوا الشهوات على القيام بالعبادات، فخسروا دنياهم وأخراهم.

﴿٦٩﴾ ثم نبههم على صدق ما أخبرت به الرسل، فقال: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين﴾ فلا تجدون مجرماً قد استمر على إجرامه، إلا وعاقبته شرُّ عاقبة، وقد أحل الله به من الشر والعقوبة ما يليق بحاله.

﴿٧٠ ـ ٧٢﴾ ﴿ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون * ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون﴾ أي: لا تحزن يا محمد على هؤلاء المكذبين، وعدم إيمانهم، فإنك لو علمت ما فيهم من الشر، وأنهم لا يصلحون للخير، لم تأس ولم تحزن، ولا يضق صدرك، ولا تقلق نفسك بمكرهم، فإن مكرهم سيعود عاقبته عليهم، ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ ويقول المكذبون بالمعاد، وبالحق الذي جاء به الرسول، مستعجلين للعذاب: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ وهذا من سفاهة رأيهم وجهلهم، فإن وقوعه ووقته، قد أجله الله بأجله، وقدره بقدر، فلا يدل عدم استعجاله على بعض مطلوبهم.

ولكن ـ مع هذا ـ قال تعالى محذراً لهم وقوع ما استعجلوه: ﴿قل عسى أن يكون ردف لكم﴾ أي: قرب منكم، وأوشك أن يقع بكم ﴿بعض الذي تستعجلون﴾ من العذاب.

﴿٧٣ ـ ٧٥﴾ ﴿وإن ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون * وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون * وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين﴾ ينبه عباده، على سعة جوده، وكثرة أفضاله، ويحثهم على شكرها، ومع هذا، فأكثر الناس قد أعرضوا عن الشكر، واشتغلوا بالنعم عن المنعم.

﴿وإن ربك ليعلم ما تكن﴾ أي: تنطوي عليه﴿صدورهم وما يعلنون﴾ فليحذروا من عالم السرائر والظواهر، وليراقبوه.

﴿وما من غائبة في السماء والأرض﴾ أي: خفية، وسر من أسرار العالم العلوي والسفلي، ﴿إلا في كتاب مبين﴾ قد أحاط ذلك الكتاب بجميع ما كان ويكون إلى أن تقوم الساعة، فكل حادث يحدث جَليّ أو خَفيّ، إلا وهو مطابق لما كتب في اللوح المحفوظ.

﴿٧٦ ـ ٧٧﴾ ﴿إن هذا القرآن يقصّ على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون * وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين﴾ وهذا خبر عن هيمنة القرآن، على الكتب السابقة، وتفصيله وتوضيحه، لما كان فيها قد وقع فيه اشتباه واختلاف عند بني إسرائيل، فقصّه هذا القرآن قصاً زال به الإشكال، وبيّن الصواب من المسائل المختلف فيها. وإذا كان بهذه المثابة، من الجلالة والوضوح، وإزالة كل خلاف، وفصل كل مشكل، كان أعظم نعم الله على العباد، ولكن ما كل أحد يقابل النعمة بالشكر. ولهذا بيّن أن نفعه ونوره وهداه، مختص بالمؤمنين، فقال: ﴿وإنه لهدى﴾ من الضلالة والغيّ والشُبه ﴿ورحمة﴾ تنثلج له صدورهم، وتستقيم به أمورهم الدينية والدنيوية ﴿للمؤمنين﴾ به، المصدقين له، المتلقين له بالقبول، المقبلين على تدبره، المتفكرين في معانيه، فهؤلاء تحصل لهم به الهداية إلى الصراط المستقيم، والرحمة المتضمنة للسعادة والفوز والفلاح.

﴿٧٨﴾ ﴿إنّ ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم﴾ أي: إن الله تعالى سيفصل بين المختصمين، وسيحكم بين المختلفين، بحكمه العدل، وقضائه القسط، فالأمور وإن حصل فيها اشتباه في الدنيا بين المختلفين، لخفاء الدليل، أو لبعض المقاصد، فإنه سيبين فيها الحق المطابق للواقع، حين يحكم الله فيها، ﴿وهو العزيز﴾ الذي قهر الخلائق فأذعنوا له، ﴿العليم﴾ بجميع الأشياء ﴿العليم﴾ بأقوال المختلفين، وعن ماذا صدرت، وعن غاياتها ومقاصدها، وسيجازي كلاً بما علمه فيه.

﴿٧٩ ـ ٨١﴾ ﴿فتوكل على الله إنك على الحق المبين * إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصمّ الدعاء إذا ولّوا مدبرين * وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلاّ من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾ أي: اعتمد على ربك في جلب المصالح ودفع المضار، وفي تبليغ الرسالة، وإقامة الدين، وجهاد الأعداء. ﴿إنك على الحق المبين﴾ الواضح، والذي على الحق، يدعو إليه، ويقوم بنصرته، أحق من غيره بالتوكل، فإنه يسعى في أمر مجزوم به، معلوم صدقه، لا شك فيه ولا مرية. وأيضاً، فهو حق في غاية البيان، لا خفاء به ولا اشتباه، وإذا قمت بما حملت، وتوكلت على الله في ذلك، فلا يضرك ضلال من ضل، وليس عليك هداهم، فلهذا قال: ﴿إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء﴾ أي: حين تدعوهم وتناديهم، وخصوصاً ﴿إذا ولوا مدبرين﴾ فإنه يكون أبلغ في عدم إسماعهم.

﴿وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم﴾ كما قال تعالى: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾. ﴿إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾ أي: هؤلاء الذين ينقادون لك، الذين يؤمنون

بآيات الله، وينقادون لها بأعمالهم واستسلامهم، كما قال تعالى: ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون﴾.

﴿٨٢﴾ ﴿وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أنّ الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون﴾ أي: إذا وقع على الناس القول الذي حتّمه الله وفرض وقته. ﴿أخرجنا لهم دابة﴾ خارجة ﴿من الأرض﴾ أو دابة من دواب الأرض، ليست من السماء، وهذه الدابة ﴿تكلمهم﴾ أي: تكلم العباد أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون، أي: لأجل أن الناس، ضعف علمهم ويقينهم بآيات الله، فأظهر الله هذه الدابة، من آيات الله العجيبة، ليبين للناس ما كانوا فيه يمترون.

وهذه الدابة، هي الدابة المشهورة، التي تخرج في آخر الزمان، وتكون من أشراط الساعة، كما تكاثرت بذلك الأحاديث، [ولم يأت دليل يدلّ على كيفيتها، ولا من أي: نوع هي، وإنّما دلت الآية الكريمة على أنّ الله يخرجها للناس، وأن هذا التكليم منها خارقٌ للعوائد المألوفة، وأنه من الأدلة على صدق ما أخبر الله به في كتابه، والله أعلم][(1)].

﴿٨٣ ـ ٨٥﴾ ﴿ويوم نحشر من من كل أمة فوجاً ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون * حتى إذا جاؤوا قال أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً أمّا ذا كنتم تعملون * ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون﴾ يخبر تعالى عن حالة المكذبين في موقف القيامة، وأن الله يجمعهم، ويحشر من كل أمة من الأمم فوجاً وطائفة ﴿ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون﴾ يجمع أولهم على آخرهم، وآخرهم على أولهم، ليعمهم السؤال والتوبيخ واللوم.

﴿حتى إذا جاؤوا﴾ وحضروا، قال لهم موبخاً ومقرعاً: ﴿أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها﴾ العلم، أي: الواجب عليكم التوقف حتى ينكشف لكم الحق، وأن لا تتكلموا إلا بعلم، فكيف كذبتم بأمر لم تحيطوا به علماً؟ ﴿أم ماذا كنتم تعملون﴾ أي: يسألهم عن علمهم، وعن عملهم، فيجد علمهم تكذيباً بالحق، وعملهم لغير الله، أو على غير سنة رسولهم.

﴿ووقع القول عليهم بما ظلموا﴾ أي: حقت عليهم كلمة العذاب بسبب ظلمهم الذي استمروا عليه، وتوجهت عليهم الحجة، ﴿فهم لا ينطقون﴾ لأنه لا حجة لهم.

﴿٨٦﴾ ﴿ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً إنّ في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ أي: ألم يشاهدوا هذه الآية العظيمة، والنعمة الجسيمة، وهو تسخير الله لهم الليل والنهار، هذا بظلمته، ليسكنوا فيه ويستريحوا من التعب، ويستعدوا للعمل، وهذا بضيائه، لينتشروا فيه في معاشهم وتصرفاتهم. ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ على كمال وحدانية الله وسبوغ نعمته.

﴿٨٧ ـ ٩٠﴾ ﴿ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين * وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مرّ السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون * من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون * ومن جاء بالسيئة فكبّت وجوههم في النار هل تجزون إلاّ ما كنتم تعملون﴾ يخوف تعالى عباده، ما أمامهم من يوم القيامة، وما فيه من المحن والكروب، ومزعجات القلوب، فقال: ﴿ويوم ينفخ في الصور ففزع﴾ بسبب النفخ فيه ﴿من في السماوات ومن في الأرض﴾ أي: انزعجوا وارتاعوا، وماج بعضهم ببعض، خوفاً مما هو مقدمة له. ﴿إلا من شاء الله﴾ ممن أكرمه الله وثبته، وحفظه من الفزع، ﴿وكل﴾ من الخلق عند النفخ في الصور ﴿أتوه داخرين﴾ صاغرين ذليلين، كما قال تعالى: ﴿إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً﴾. ففي ذلك اليوم، يتساوى الرؤساء والمرؤوسون، في الذل والخضوع لمالك الملك.

ومن هَوْله أنك ﴿ترى الجبال تحسبها جامدة﴾ لا تفقد [شيئاً] منها، وتظنها باقية على الحال المعهودة، وهي قد بلغت منها الشدائد والأهوال كل مبلغ، وقد تفتت، ثم تضمحل، وتكون هباء منبثاً. ولهذا قال: ﴿وهي تمر مر السحاب﴾ من خفتها، وشدة ذلك الخوف وذلك ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

ثم بين كيفية جزائه فقال: ﴿من جاء بالحسنة﴾ اسم جنس يشمل كل حسنةٍ، قولية أو فعلية أو قلبية ﴿فله خير منها﴾ هذا أقل التفضيل[(2)].

مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾
وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا
مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي
حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ
﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ
وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ
سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

سُورَةُ القَصَصِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُو عَلَيْكَ
مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ
فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ
طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ
مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا
فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾

(١) ما بين القوسين المركنين زيادة من هامش أ بخط الشيخ ـ رحمه الله ـ وفي ب زيادة أخرى، يبدو أنها بخطه ـ رحمه الله ـ هي: (لم يذكر الله ورسوله كيفية هذه الدابة، وإنما ذكر أثرها، والمقصود منها، وأنها من آيات الله تكلم الناس كلاماً خارقاً للعادة حين يقع القول على الناس، وحين يمترون بآيات الله فتكون حجة وبرهاناً للمؤمنين وحجة على المعاندين).

(٢) سبق قلم الشيخ إلى آية الأنعام ﴿فله عشر أمثالها﴾ وعليه فسرها.